أبْسُطْ رِدَاءَك

عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله ، إنى أسمع منك حديثاً كثيراً، أنساه، قال: «أبسطْ رداءك» فبسطتُه ، قال: فغرف بيديه، ثمّ قال: «ضُمَّه» فضممتهُ، فما نسيتُ شيئاً بعْدُ. [رواه البخارى]

وفى رواية (فغرف فيه بيديه).

أما الترمذى ومسلم وأحمد فقد رووا الحديث بألفاظٍ مختلفة ، ولكنّها تجتمع فى كون بَسْطِ الرّداء وقبضه سبباً للحفظ.

وتتوالى على يدى رسول الله ﷺ الآيات الدالة على عظمة قدرة الله تعالى. وهى آيات لا نستطيع أن ندرجها ضمن الممكن فى حياة الإنسان؛ لأنها خارجة عن كل القوانين التى تحكم فعاليات الإنسان والموجودات على هذه الأرض.

وفى هذا الأثر نلاحظ أن أبا هريرة رضى الله عنه كان عاجزاً عن حفظ كل أحاديث رسول الله ﷺ ، فاشتكى إلى رسول الله قلّة الحفظ.

وتعلمون جيداً أن الحفظ ملكة عقليّة ، تتفاوت من إنسان إلى آخر، بتفاوت القدرات العقلية، إضافة إلى قابليَّة هذه الملكة للتنامى من خلال التدريبات المستمرّة على حفظ الأشياء.

أما فى هذا الأثر فإن ملكة الحفظ لدى أبى هريرة تنامتْ، ولكن ليس من خلال التدريبات ، وإنما من خلال موقف حصل من رسول الله ﷺ بعيداً عن كل النشاطات التى قد تمارس لتنمية هذه الملكة، وهو أن قال له «ابْسط رداءك» ، وعندما بسط رداءه غرف بيديه، ثم قال له «ضُمَّه» ، وعندما ضمّه لاحظ أنه لم ينْسَ شيئاً من أحاديث رسول الله ﷺ.

فماذا وضع رسول الله فى الرداء؟ مع ملاحظة أن يديه كانتا فارغتين؟ وما علاقة ضمّ الرداء على ما وُضِع فيه بعقل أبى هريرة؟

من الثابت فى العلم المادى أن معالجة الاضطرابات الماديَّة فى جسم الإنسان لابد لها من علاجات ماديَّة باطنيّة أو ظاهريَّة، وبعد أن يستخلص الجسم المواد الفعّالة فى تلك العلاجات، ينقلها الدم إلى جميع أجزاء الجسد، فتفعل فعلها فى الأجزاء المقصودة.

ولمزيد من الإيضاح أقول: إن ملكة الحفظ تنامت من خلال مظهرين مارسهما رسول الله ﷺ مع الأشخاص المعنيين:

أولاً : قيل للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين لقد أُوتيْتَ علم الغيب. فضحك وقال:

(ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذى علم).

وبعد أن عدّد له جوانب علم الغيب ، قال

(وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه، فعلّمنيه، ودعا لى بأن يعيه صدرى، وتنضمّ عليه جوانحى)[1].

فكان الدعاء من رسول الله ﷺ سبباً لتنامى ملكة الحفظ لدى الإمام كرّم الله وجهه.

ثانياً : وهذا الأثر الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه.

فما هى الفعاليَّة التى كان لها هذا الأثر فى ملكة الحفظ لدى الإمام ولدى أبى هريرة.

أولاً : لدى الإمام.

كان مجرّد الدعاء سبباً كافياً لتنامى ملكة الحفظ لدى الإمام؛ لأن المقصود بالدعاء هو رب العالمين، الذى استجاب لدعاء رسوله الأعظم، فأراد للأمام أن

(١) نهج البلاغة · شرح الإمام محمد عبده - الجزء الثانى - ص ١٠، ١١.

لاينْسى شيئاً مما يلقيه إليه رسول الله، وفى هذه الحالة لنا فى تأويل هذا الأمر مساران:

١ - إن الله، جلا وعلا، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وإن لم نستطع إدراك هذه الكينونة، يبقى من المفروض علينا الإيمان بأن القدرة الإلهيَّة تفعل ما تريد بعيداً عن كل القوانين المعلومة فى حياة الإنسان.

٢ - أما المسار الثانى، فيفترض أن قوله تعالى(كن فيكون) لا يأتى غَفْلاً من القوانين التى قدّرها جل شأنه للمخلوقات ، لأن القوانين التى قدّرها جل شأنه فى الموجودات هى:

- قوانين يعلمها الإنسان، وأعطاه جل شأنه القدرة على التصّرف فيها أو الاحتيال عليها، كقانون الجاذبية وغيره من القوانين التى تأتى فى نفس المسار.

- وقوانين لا يعلمها الإنسان، ولا يدرى عنها شيئاً، وليس له أن يعلم منها شيئاً.

فقد أراد جل شأنه للإمام أن يحفظ كل ما يُلقى إليه من رسول الله، فما كان منه جل شأنه إلا أن قال لملكة الحفظ (كونى حافظة بالقدر كذا) فلم تملك إلا الاستجابة للأمر الإلهى، فاستوعبت كلها ما أُلقى إليها.

فالقدرات الموجودة لدى الإنسان خلقها جل شأنه قابلةً لأن تأخذ مجالاً أكبر بكثير مما هو متيسّر للإنسان، ولكنه ، سبحانه، أراد لها قدراً معيناً من الفعاليات، فلم تتجاوزه ، وليس لها أن تتجاوزه إلا بأمر من الله تعالى.

وللتدليل على ذلك انظروا إلى العصا التى كانتَ لدى موسى عليه السلام، التى كانت تحمل فى ذاتها من القوانين المعلومة لدينا، ما يستحيل معه تحوّلها إلى أفعى، تأكل ما تجده أمامها. ولكنه، سبحانه وتعالى، أودع فيها قانوناً آخر، يعطيها القابليَّة على التحوّل من ذاتها إلى ذات أخرى، وعندما أمرها جل شأنه أن تصبح أفعى ، استجابت من خلال القوانين المودعة فيها، فأصبحتْ أفعى. ونفس المقال يقال فى (الجذل) الذى أعطاه رسول الله لعكاشة، فأصبح سيفاً قاطعاً.

ثانيا: لدى أبى هريرة :

أما أبو هريرة، فإن الأمر قد تجاوز ما قد قيل فى حالة الإمام كرّم الله وجهه، إلى حيثيات أخرى غريبة، قد تستغلق على الفهم، ومن بينها أن تكون تنمية ملكة الحفظ مرهونةً بضمّ الرداء على ما وُضِع فيه، وأن يكون الموضوع شيئاً تجزم الحواس بعدم وجوده.

إن الحالة التى جرت مع أبى هريرة لم تكن أمراً إلهياً (كن) ، ولم يكن الذى قدّمه رسول الله ﷺ متعلقاً بذات أبى هريرة، بل كان متعلقاً بردائه، فما علاقة الرداء بملكة الحفظ لدى ذلك الصحابى الجليل؟

إن يَدَى رسول الله ﷺ كانتا فارغتين من كل أثر مادى، ومن يراهما فى ذاك الوقت لن يرى فيهما شيئاً. ومع ذلك فإننا لا نستطيع القول بأنّ رسول الله كان يضحك على أبى هريرة ، فأوهمه أنه وضع شيئاً فى الرداء، وهو لم يفعل؛ فليس من أخلاق رسول الخداع والإيهام.

بل نقول إنه وضع شيئاً فى الرداء، ولكنه شىء يخرج عن طبائع الأشياء التى يدركها الإنسان، إلى طبيعة أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، وأما أبو هريرة فلم يعلم منها سوى أثرها الذى تجلّى فى قدرته الفائقة على الحفظ.